البنيوية (النشأة والمفهوم)
(عرض ونقد)

Structuralism- Concept, Evolution-(Presentation and criticism)

محمد بن عبدالله بن صالح بلعفير


2003
١٤٢٤
جامعة الأندلس
للعلوم والتقنية
Alandalus University For Science & Technology

(AUST)

البنيوية (النشأة والمفهوم)
(عرض ونقد)

الملخص :

يعالجُ هذا البحث مفهوم البنيوية ومدى صلاحِ تطبيقه على النصوص الشرعية لاسيَّما القرآن الكريم. جعلتُ له مقدمة في بيان الحياة الفكرية في المجتمع الغربي ، ثمّ مهَّدت له بتمهيدٍ تحدّثت فيه عن نشأة علم اللغة وعناية اللغويّين به ، وما تبعه من علومٍ مختلفة لحقها نظريّاتٌ وآراء علمية أسهمتْ في تطوير علم اللغة خصوصًا ، وفي تطوير العلوم الأخرى التي لحقت في الظهور به .

ثمَّ جعلتُ في تضاعيف هذا البحث المبحث الأول وخصَصْتُهُ بالحديث عنْ نشأة البنيوية كمنهجٍ من المناهج البحث الحديثة، وعن جذورها وروافدها التاريخية. وفي المبحث الثاني تحدّثت عن مفهوم البنيوية، وخصائصها ، وأدواتها.

وفي المبحث الثالث تحدّثت عن ظهور البنيوية في عالمنا العربي والإسلامي، وعن مدى تطبيق هذا المنهج على نصوص الوحي ، وبعض التطبيقات، ثمّ ذكرْتُ حكم البنيوية من المنظور الإسلامي.

Abstract :

Content Search: This research has made the introduction and pave the three sections and a conclusion and indexes

In the foreground: Briefly about the intellectual life in Western society.

In the preface: I talked about the emergence of linguistics, and take care of it, and its definition, and then the emergence of various sciences, and right out of the scientific theories and opinions have had a significant role in the development of these sciences.

First topic: talked about the emergence of structural, and historical roots and their tributaries.

The second topic: talked about the concept of structuralism, and their characteristics, and tools.

Section III: structural talked about the emergence of the Arab and Muslim world, and the extent of the application of this approach to the texts of revelation, and some applications, then said structural perspective of Islamic rule.

المقدمة :

عاش المجتمع الغربي قبل ظهور المنهج البنيوي في القرن العشرين تحت سيطرة الوجودية والماركسية، اللتين كانتا تمسكان بزمام الأمور في الساحة الفكرية، فقد كان هناك تقدمٌ ماديٌ ورخاءٌ ملموسٌ، غير أن الغرب أدرك أن هذا التطور المادي لم يجعل الإنسان أكثر سعادة، إضافة إلى أن هذا التطور أغفل الإجابة عن كثير من التساؤلات التي تطرحها الأديان والمدارس الفلسفية القديمة، الأمر الذي جعل الفكر الغربي يبحث عن بديل لحل هذه الأزمة، فظهرت البنيوية التي سيطرت على كافة المجالات في المجتمع الغربي، في محاولة لوضع حلول لهذه الأزمة، لأن البنيوية لم تطرح نفسها سياسياً، لكن تأثيرها الثقافي الكبير لا يقل عن تأثيرها السياسي[1].

ومن هنا يتبين أهمية الموضوع وسبب اختياره. والمنهجُ البنيويُّ أساسًا ثورةٌ على المنهج التاريخي، وعلى النصوص، وضوابطها في المجتمع الغربي، وانتقل صدى هذا المنهج إلى العالم العربي والإسلامي وكان له أثر سلبي كبير على التراث العربي كلِّه، وعلى نصوص الوحي على وجه الخصوص، ولما له من أثر سلبي واضح في المجتمع العربي والإسلامي، قمت بدراسة "**البنيوية - المفهوم والنشأة-** " دراسة نقدية.

خطة البحث: وقد تكون هذا البحث: من تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة:

المقدمة، وتشمل:

تمهيد: نشأة علم اللغة.

المبحث الأول: البنيوية عند الغرب، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: نشأة البنيوية.

المطلب الثاني: الجذور والروافد التاريخية للبنيوية.

المبحث الثاني: مفهوم البنيوية، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: البنيوية بين المفهوم والوصف.

---

(١)انظر: قنديل، وردة عبدالعظيم عطا الله، البنيوية وما بعدها بين التأصيل الغربي والتحصيل العربي، الجامعة الإسلامية، غزة- فلسطين، (ص٢٥-٢٦)،الغذامي، عبدالله محمد، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، النادي الأدبي الثقافي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، (ص٧٠-٧١)،كريزويل، إديث، عصر البنيوية، ترجمة: جابر عصفور،دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، (ص٢٠).

المطلب الثاني: خصائص البنيوية.

المطلب الثالث: أدوات البنيوية.

المبحث الثالث: البنيوية في العالم الإسلامي، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ظهور البنيوية في العالم العربي والإسلامي.

المطلب الثاني: البنيوية مع نصوص الوحي وتطبيقاتها.

المطلب الثالث: حكم البنيوية من المنظور الإسلامي.

- الخاتمة: وفيها أهم النتائج.
- ثبت المراجع.
- فهرس الموضوعات.

تمهيد:

نشأة علم اللغة:

علم اللغة هو أحد العلوم التي نشأت قديماً نتيجة لعناية الإنسان باللغة؛ وذلك عندما شعر بأهميتها كونها أداة للتواصل مع الآخرين، وبها (أي اللغة) يستطيع أن يحفظ ما يقال، ويثبت لمن بعده ما كان عليه من أفكار.

وعرِّف علم اللغة أيضاً بأنه: "العلم الذي يبحث في اللغة، ويتخذها موضوعاً له، فيدرسها من النواحي الوصفية، والتاريخية، والمقارنة، كما يدرس العلاقات الكائنة بين اللغات المختلفة، أو بين مجموعة من هذه اللغات، ويدرس وظائف اللغة وأساليبها المتعددة، وعلاقتها بالنظم الاجتماعية"[٢].

والعناية باللغة كانت موجودة منذ القدم في كثير من مراكز الحضارات القديمة كالحضارة الهندية، والحضارة اليونانية، وحضارة بلاد الشام، وبلاد الرافدين، وغيرها من حضارات العرب[٣]، إلا أن نتائج العناية بعلم اللغة في تلك الحضارات كانت

---

(٢)عبدالتواب، رمضان، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، مصر، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ، (ص٧).

(٣)وقد عرفت اللغة بأنها: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، ابن جني الموصلي، أبو الفتح عثمان،الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة الرابعة، (٣٤/١).

تختلف من حضارة إلى أخرى، فما توصل إليه اليونان يختلف عما توصلت إليه حضارة بلاد الرافدين أو بلاد الشام، كما تختلف عما توصلت إليه الحضارة الهندية(٤).

وبقي حال علم اللغة على ذلك حتى جاء الاستعمار الأوربي على الدول، حيث واجه صعوبة في التعرف على لغات الدول التي استعمروها، فكان دور اللغويين الأوربيين في ذلك الوقت التفكير والبحث عن منهج لغوي يستطيعون من خلاله فهم ثقافات تلك الدول، بعيداً عن التراث التقليدي (فلسفة الإغريق – قواعد اللغة اللاتينية) وغيرهما(٥).

وقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي الكثير من التطورات في علوم مختلفة، كالعلوم السياسية، الاجتماعية، والطبيعية...، ثم تلا ذلك بدايات القرن العشرين ظهور عدد من النظريات والآراء العلمية كان لها دور كبير في تطوير تلك العلوم، حيث قامت بإخضاعها للتفكير والتدقيق، ووصلت إلى نتيجة أن الظواهر العلمية ذات طبيعة معقدة، ومنذ تلك اللحظة ظهرت لعلماء الغرب حقيقة وهي أن العالم كله مبني على أنظمة تسير عليها أموره جميعها، وأطلقوا مقولتهم المشهورة التي تقول: "لكي نستكمل معرفتنا عن العالم ينبغي أن نبحث عن بنية النظام"(٦).

وهنا بدأ ظهور البنيوية "وهي رد على وضع فكري كان يتحدث عن تشظي المعرفة، وتفرعها إلى تخصصات دقيقة منعزلة، ولذلك دعت البنيوية إلى النظام الكلي المتكامل والمتناسق الذي يوحد ويربط العلوم بعضها ببعض، بعيداً عن التجزئة التي أحدثها الاتجاه إلى التخصصات الدقيقة التي سببت عزلة الإنسان وضياعه"(٧).

فمتى كانت نشأة المنهج البنيوي، وما هي الأسس والروافد التاريخية التي قام عليها؟ هذا ما سيتم توضيحه وبيانه بإذن الله في المبحث الآتي.

---

(٤)انظر: كزاره، صلاح "علم اللغة الحديث بدايات وتطور، جامعة حلب.

(٥)انظر: العايد، سليمان بن إبراهيم، "أسس علم اللغة العام وتطبيقاته على اللغة العربية"، نادي مكة الثقافة الأدبي، ١٤٣٢هـ، (ص٤٠).

(٦)ولعل الصحيح أن يقال إن نشأة علوم اللغة واللسانيات مرتبطٌ في أصله بالثورة على الكنيسة والموقف الذي نشأ عنها من التراث الكنسي على وجه الخصوص ومن التراث لدى الأمم الأخرى على وجه العموم، ولذا فإن ما ذكره الأستاذ الدكتور سليمان العايد يصح كنتيجةٍ وليس كسبب، فالغرب تولد لديه الثورة على التراث للتخلص من مرجعيته عن طريق فتح الباب لهدم دلالاته .

(٧)انظر: كزاره، علم اللغة الحديث بدايات وتطور.

المبحث الأول: البنيوية عند الغرب

المطلب الأول: نشأة البنيوية:

ترجع بداية البنيوية إلى أوائل القرن العشرين، عندما نُشر كتاب "محاضرات في اللسانيات"[(٨)] للسويسري (فرديناند دي سوسير) [(٩)]سنة (١٩١٦م) في باريس، الذي يعد أول مصدر للبنيوية في الثقافة الغربية، والذي تبنَّته البنيوية في الستينات من القرن نفسه في فرنسا.

وتعد هذه الدراسات التي قام بها (سوسير) الأساس الأول للبنيوية اللغوية عند الغرب، التي قد استفادت من مبادئ المذهب التجريبي[(١٠)].

ثم كتب الروسي (رومان جاكبسون) [(١١)] -من رواد المدرسة الشكلية الروسية[(١٢)]- ما سمي بـ"بالأطروحات" الذي أهداه (جاكبسون) إلى تلميذه (كلود ليفي شتراوس) [(١٣)(١٤)].

(٨)قصاب، وليد، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، (ص١١٨).

(٩) هذا الكتاب عبارة عن محاضرات ألقاها سوسير، وجمعها طلابه ونشر بعد وفاته بثلاث سنوات.

(١٠)فرديناند دي سوسير عالم لغويات، ولد في جنيف سنة (١٨٥٧م)، تخصص في الفيزياء، ثم انتقل إلى تخصص اللغات الهندو أوروبية، صدر له أول كتاب سنة (١٨٨٧م) بعنوان "النظام الصوتي في اللغات الهندو أوروبية القديمة"، ثم كتاب "محاضرات في الألسنية" بعد أن أصبح عضواً في الجمعية الألسنية الفرنسية، وله كتاب ثالث أسماه "في علم اللغة العام"، ويعد سوسير الأب المؤسس عند الغرب لمدرسة البنيوية، وذلك بعد أن اتجه إلى دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية، وكان قبل ذلك تدرس اللغات دراسة تاريخية، توفي سنة (١٩١٣م). انظر: ستروك، جون، البنيوية وما بعدها، ترجمة: محمد عصفور، منشورات عويدات، الطبعة الرابعة، ١٩٨٥م، (ص١٣-١٨)، فضل، صلاح، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، (ص١٨-٣٢).

(١١)انظر: حمودة، عبدالعزيز، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، دار المعرفة، ١٩٩٨م،(ص١٥٨).

(١٢)والمنهج التجريبي من الكوارث التي أحدثها الغرب لدراسة الظواهر الإنسانية، فالسلوك الإنساني أرق وأسمى من إخضاعها لمناهج العلم التجريبي.

(١٣)رومان جاكبسون، ولد في موسكو سنة (١٨٩٦م)، عالم في اللغات، اطلع على أعمال سوسير، وهو أحد رواد المدرسة الشكلية الروسية وعنه تولدت، وهو أحد مؤسسي النادي اللساني في براغ سنة (١٩٢٠م) وهو النادي الذي عمل على استخدام المنهج البنيوي في أبحاثه، ثم انتقل إلى أمريكا وهناك رسخت قدمه في التنظير اللساني حتى غدت أبحاثه مرجعاً للسانيات، ويعد مؤسس البنيوية الأدبية، توفي سنة (١٩٨٢م). انظر: جاكبسون، رومان،قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنوز، دار توقبال، ١٩٨٨م،قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية (ص١٠١-١٠٣).

(١٤)المدرسة الشكلية تعد من أبرز المدارس المؤثرة في ميدان النقد الأدبي في روسيا بين عام (١٩١٠-١٩٣٠م) قبل الثورة الشيوعية الروسية، كان لها أثر كبير على كثير من المفكرين الروس وغيرهم، كما كان لها أثر كبير على المنهج البنيوي كما سيأتي، وقد قامت المدرسة الشكلية بدراسة الأدب على أنه منتج له استقلاليته وخصوصيته، بعد أن كان الأدب يعامل على أنه نسخة للمؤلف، وقد كان أبرز أفكار هذه المدرسة النظر إلى النصوص بعيداً عن قائلها وعن التاريخ، وكان توجهها هو توسيع نطاق اللسانيات لتشمل اللغة الشعرية؛ لسبب النفرة من الدراسة الأدبية التي كانت سائدة عندهم، توقفت بعد عام (١٩٣٠م). انظر: قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية (ص١٠١)، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي – من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية- (٨/٣١-٥٨).

بل ذهب بعضهم إلى أن الشكلية الروسية هي البنيوية المبكرة، حيث كان أول من استخدم لفظة (أبنية) هو الفيلسوف الروسي (تيتانيوف)، وتبعه (جاكبسون) وهو أول من استخدم لفظ البنيوية لأول مرة عام (١٩٢٩م) [١٥].

فيتبين من ذلك أن البنيوية من تأسيس (سوسير)، لكنها لم تعرف بهذه التسمية، وتظهر في الفكر الغربي إلا على يد الروس في بداية القرن العشرين، ولعل ما يؤكد ذلك عدد من الأسباب، منها:

١) أن (فرديناند دي سوسير) لم يستخدم لفظ البنيوية، بل كان يستخدم لفظ (النسق - منظومة).
٢) أن أول من أطلق لفظ (بنية) هو الروسي (تيتانيوف)، وأول من أطلق لفظ البنيوية هو الروسي (رومان جاكبسون).
٣) أن (ليفي شتراوس) كان قد أخذ المنهج البنيوي من كتاب "الأطروحات" الذي أهداه له أستاذه الروسي (رومان جاكبسون).
٤) أن كثيراً من البنيويين ذهبوا إلى القول بأن الشكلية الروسية هي البنيوية، كما تقدم.

ثم ذاع صيت البنيوية، وصارت منهجاً منتشراً، واشتهر في فرنسا في الستينيات على يد الفرنسي (كلود ليفي شتراوس).

والبنيوية عند ظهورها لا تعتبر اتجاهاً مماثلاً وموازياً للاتجاهين الرئيسين الموجودين آنذاك في أوربا (الشكلانية والماركسية)، بل تعد منهجاً تفرع عن أحد الاتجاهين السابقين أو كليهما [١٦].

وكانت بداية استخدام المنهج البنيوي محصورة في علم اللغة، كما كان عند (سوسير) في بداية التأسيس [١٧]، ثم صار التطور بعد اكتشاف البنية في علم اللغة إلى الكشف عن عناصر [١٨] النظام في الأدب [١٩].

---

(١٥)وسيأتي بيانها عند الحديث عن جذور وروافد البنيوية في المطلب الثاني.

(١٦)كلود ليفي شتراوس هو أحد أعمدة البنيوية في الغرب، ولد سنة (١٩٠٨م) علماني، تخرج من كلية الحقوق في السوربون سنة (١٩٣١م)، وهو أستاذ في علم الاجتماع، ثم عمل أستاذاً لعلم الأديان بالسوربون، وبعدها أستاذ الأنثربولوجيا الاجتماعية، له كتب كثيرة، أغلبها عن البنيوية منها: "الأبنية الأولية لعلاقات القرابة" و "الأنثروبولوجيا البنيوية"، توفي في باريس سنة (٢٠٠٩م). انظر: ستروك، البنيوية وما بعدها (ص٢٩-٧٣).

ولما كانت البنيوية عند (سوسير) في اللغة فقط كانت عنده قاعدة التفريق بين اللغة والأقوال، أو بين اللغة كنظام وبين اللغة كاستعمال (كلاماً)، حيث جعل اللغة مؤسسة اجتماعية بينما الكلام أو التعبير عمل فردي، مع العلم أن (سوسير) لم يستخدم كلمة بنية، وإنما استخدم كلمة "نسق"(٢٠) أو "منظومة" وهي بنفس المعنى(٢١).

كما كان من الأسس التي أقام عليها (سوسير) المنهج البنيوي هو ثنائية الدَّال(٢٢)، والمدلول(٢٣)، أراد بذلك أن اللغة ليست نظاماً مستقراً ومن الأمور الجوهرية، بل هي من الأشكال غير المستقرة، وقد قال (سوسير) عن ذلك: "لبيان أن اللغة لا يمكن أن تكون إلا منظومة من قيم مجردة يكفي في الحسبان اعتبار العنصرين اللذين يشاركان في وظيفتهما وهما: الأفكار والأصوات...فكل شيء إنما يتم بين الصورة السمعية والتصور وذلك ضمن حدود الكلمة مقدرة كمجال مغلق موجود في ذاته"(٢٤).

وبهذا يكون بداية المنهج البنيوي هو نموذج مستعار من علم اللغة، وكانت البنيوية في بداية ظهورها تهتم بكثير من نواحي المعرفة الإنسانية كـ(علم الاجتماع، وعلم النفس)(٢٥).

ولم تدم البنيوية طويلاً، فقد لفظت أنفاسها الأخيرة في فرنسا والعالم الغربي عموماً في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات تقريباً، بل إن تلك النهاية قد بدأت بعد

---

(١٧)انظر: جاكسون، ليونارد، بؤس البنيوية، ترجمة: ثائر ديب، دار الفرقد، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م، (ص٩٦-٩٧).

(١٨)انظر: حمودة، المرايا المحدبة (ص١٦٣)، قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية (ص١٢٢).

(١٩)انظر: البازعي، سعد، استقبال الآخر، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، (ص١٧٣)،ساخاروفا، من فلسفة الوجود إلى البنيوية، ترجمة: أحمد برقاوي، دار دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، (ص١٧١).

(٢٠)وذلك كمنهج وليس مصطلح معروف بالبنيوية كما تقدم.

(٢١)العناصر: جمع عنصر ويطلق عليه "الفونيم"، وهو ما يقابل الحرف، ويطلق على أصغر وحدة من وحدات السمات الصوتية المتمايزة (اللغة)، وبتغيره يتغير معنى الكلمة. انظر: جابر عصفور، عصر البنيوية (ص٤٠١). حمودة، المرايا المحدبة (ص٢١٩)، الموسوعة الحرة ويكيبيديا (وحدات اللغة).

(٢٢)انظر: الماضي، شكري، في نظرية الأدب، دار الحداثة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، (ص١٩٠).فضل، صلاح، مناهج النقد المعاصر، أفريقيا الشرق، الطبعة الثانية، ٢٠١٣م، (ص٧٦).

(٢٣)النسق: هو في معناه مرادف للبنية، ويعني أن كل ظاهرة عبارة عن نسق متكامل يتكون من عناصر مترابطة فيما بينها بعلاقة قوية، حيث أن كل عنصر فيه محتاج إلى بقية العناصر الأخرى. انظر: بنيني، زهيرة، بنية الخطاب الروائي عند غادة السمان، جامعة العقيد الحاج لخضر بالجزائر (ص٢٤). وسيأتي زيادة بيان النسق عند الحديث عن أدوات البنيوية.

(٢٤)المصدر نفسه (ص٢٠-٢١).صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر (ص٦٩).

(٢٥)الدال: هو اللفظ أو الصورة الصوتية أو الصورة الكتابية للعلامة اللغوية. انظر: مهيبل، عمر، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠م، (ص٢٦).

(جاك دريدا)[٢٦] التي ألقاها في مؤتمر جونز هوبكنز، مفسحة بذلك البنيوية المجال للتفكيكية[٢٧].

مع أن هذا النقد التقويضي للبنيوية عند الغرب لم يؤثر على تبني العرب للبنيوية حتى بعد مرور ٢٠ عاماً من صدوره، كما سيأتي بيانه[٢٨].

المطلب الثاني: الجذور والروافد التاريخية للبنيوية

إن الناظر في المنهج البنيوي عند نشأته حديثاً يجده قد ارتبط بمناهج وفلسفات كانت هي الأساس التي انطلق منها هذا المنهج حتى ظهر في شكله المعروف، ولعل من أبرز تلك الجذور والروافد التي كان لها أثر كبير في نشأة المنهج البنيوي، ما يلي:

١- المدرسة الشكلانية الروسية:

وتعد هذه المدرسة من المؤثرات التي تركت بصمات واضحة في المنهج البنيوي في مرحلة نضجه فيما بعد الشكلية الروسية، التي سادت الساحة الأدبية في روسيا في العشرينات من القرن العشرين[٢٩].

وكانت نظرة هذه المدرسة في التعامل مع النص هي ضرورة التركيز على العلاقات الداخلية للنص، وأن موضوع الدراسة التاريخية للنص ينبغي أن تنحصر في ما يسميه (جاكبسون) بأدبية الأدب؛ وهي التي تتكون عندهم من الأساليب والأدوات (الخصائص) التي تميز الأدب عن غيره، وتعد هذه المدرسة هي التطبيق العملي لألسنية (سوسير) التي أثرت كثيراً في تفكير الشكليين[٣٠].

---

(٢٦)المدلول: هو المفهوم أو المعنى وهو التصور الذهني من العلامة اللغوية (الكلمة). انظر: المصدر نفسه.

(٢٧)سوسير، فرديناند دي، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة: يوسف غازي، دار نعمان للثقافة والنشر، ١٩٨٤م، (ص١٣٧-١٣٩).

(٢٨)انظر: البازعي، استقبال الآخر (ص١٧٣)، بياجيه، جان، البنيوية، ترجمة: عارف منيمنه وبشير أوبري، منشورات عويدات، الطبعة الرابعة، ١٩٨٥م، (ص١٧، ٦٤).

(٢٩)جاك دريدا، فيلسوف فرنسي من أصل جزائري، ولد سنة (١٩٣٠م) من أبوين يهوديين، يعتبر رائد المنهج التفكيكي والمؤسس الأول له، له مؤلفات في الفكر والثقافة، منها: "استراتيجية تفكيك الميتافيزيقيا" و "صيدلية أفلاطون". انظر: عطيه، أحمد عبدالحليم، جاك دريدا والتفكيك، دار الفارابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، (ص٧-٨).ك.م. نيوتن، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة: عيسى علي العاكوب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، (ص١٥٥).

(٣٠)انظر: البازعي، استقبال الآخر (ص١٩٧-١٩٨)، حمودة، المرايا المحدبة (ص١٩١).ألفيا، عبدالمنعم، في نقد التفكيك، منشورات ضفاف، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ، (ص٩).

كما كان من نظرة المدرسة الشكلية هو تمييز اللغة الأدبية من لغة الخطاب العادي، ويجعلونها لغة غريبة خارجة عن الرتابة(٣١).

وهم بذلك يجعلون من الأدب صورة رمزية، ويقومون بدراسة عناصر النص بعيداً عن واقعه التاريخي والاجتماعي، وكذلك بعيداً عن المؤلف نفسه وميوله، يقول (جاكبسون): "إن هدف علم الأدب ليس هو الأدب في عمومه، وإنما أدبيته؛ أي تلك العناصر المحددة التي تجعل منه عملاً أدبياً"(٣٢).

يتبين من ذلك أن اعتماد المدرسة الشكلية كان على النسق، ودراسة الأدب من الداخل، وبهذا تظهر مدى العلاقة في العمل النقدي بين المدرسة الشكلية الروسية والمنهج البنيوي.

ومع قوة العلاقة بين الشكلية والبنيوية إلا أن هناك فرقاً بينهما، كما يؤكد ذلك رائد البنيوية (كلود ليفي شتراوس)، يتمثل في أن المدرسة الشكلية تفصل تماماً بين الشكل والمضمون للنص؛ لأن الشكل هو المقابل للفهم لا يتعدى المضمون أن يكون بقايا خالية من القيمة الدالة، أما البنائية فهي ترفض وجود مثل هذا التفريق، وليس عندها جانب تجريدي وجانب محدد واقعي، فالشكل والمضمون لهما الطبيعة نفسها ويستحقان العناية نفسها في التحليل؛ فالمضمون عند البنيوية يكتسب واقعه من البنية، وما يسمى بالشكل ليس سوى تشكيل هذه البنية من أبنية موضعية أخرى تشمل فكرة المضمون نفسها(٣٣).

٢- المدرسة الماركسية:

كان للفكر الماركسي أثر كبير على المنهج البنيوي في بداية نشأته لما يقرب من نصف قرن، فقد "سيطرت البنيوية على الحياة الفكرية لأوروبا خلال الستينات من القرن العشرين، ولم ينج النقد الماركسي من هذه البيئة الفكرية. إن كلا المذهبين

---

(٣١)انظر: البازعي، استقبال الآخر (ص١٩٧).

(٣٢)انظر: مداح، وردة، التيارات النقدية الجديدة عند عبدالله الغذامي، جامعة العقيد الحاج لخضر بالجزائر، (ص١٧)، حمودة، المرايا المحدبة (ص١٦١).

(٣٣)انظر: الماضي، في نظرية الأدب (ص١٨٨).صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر (ص٧٠).قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية(ص١٠٣-١٠٩).

يرى أن الأفراد لايمكن فهمهم بمعزل عن وجودهم الاجتماعي، فالماركسيون يعتقدون أن الأفراد حمالون للمكانات في النظام الاجتماعي وليسوا أحراراً. أما البنيويون فيعتقدون أن التصرفات والكلام الفردي ليس لهما معنى بمعزل عن أنساق الدلالة التي تولدها"[٣٤].

ويظهر أثر المنهج الماركسي من خلال قول البنيويين السابق؛ حيث يعتقدون أن التصرفات والكلام الفردي ليس لهما معنى معزول عن أنساق الدلالة التي تولدها، فهم يربطون بين الأدب كأحد مكونات البنية الفوقية (تعني الدين والسياسة والثقافة والقانون) والواقع الخارجي كأحد مكونات البنية التحية (القوى الاقتصادية والاجتماعية والعلاقات المتغيرة بينهما من صراع طبقي...)، وهذا الربط الصريح بين النص كداخل والواقع كخارج لا يقوم به البنيوي بل يقوم به الماركسي بدرجة أولى، وهنا يظهر مدى تأثير الماركسية على المنهج البنيوية، ودورها في نشأته[٣٥].

ونقطة الاختلاف تكمن في أن الماركسيين يؤكدون على القيمة التاريخية والاجتماعية للدوال، وهي قيمة تعطي هذه الدوال دلالات تتدخل في تحديدها الظروف التاريخية، والاجتماعية، والاقتصادية، باعتبار أن وعي الفرد هو الذي يشكل لغته، وليست اللغة هي التي تحدد وعيه. أما البنيويون فيرون أن الدلالة تحددها العلاقات بين الدوال وبين الأنساق داخل النص.

ومن خلال هذا الأثر للشكلية الروسية والفكر الماركسي على المنهج البنيوي يتبين أن البنيوية كمنهج نقدي لم ينشأ من فراغ، ولكنه نشأ من مناهج ومدارس وفلسفات أخرى كان لها أثر في ظهوره.

ونتج عن ذلك الأثر وجود ثلاث صور للبنيوية الأدبية، ترجع جميعها إلى (اللسانيات الحديثة) التي أسسها "فرديناند دوسوسير" كما تقدم، وهذه الصور هي: البنيوية اللغوية، والبنيوية الأدبية الشكلية، والبنيوية الأدبية الماركسية (التكوينية)، كلها

---

(٣٤)انظر: قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية (ص١٠٦).

(٣٥)صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي (ص٤٢).

تجتمع على أن النظر إلى النص الأدبي يكون مجرداً عن أي مؤثرات خارجية (طبيعة المؤلف، التاريخ، الاجتماع...) (٣٦).

المبحث الثاني: مفهوم البنيوية

المطلب الأول: البنيوية بين المفهوم والوصف

أولاً: البنية ودلالتها اللغوية:

اشتقت كلمة (بنية) من الفعل الثلاثي (بنى، يبني، بناء، وبناية، وبنية)، والبنية تعني الهيئة التي بني عليها شيء ما، فهي تدل على معنى التشييد والعمارة والكيفية التي يكون عليها البناء، وبهذا تأسس ثنائية المعنى والمبنى على الطريقة التي تبنى بها وحدات اللغة، وعلى مدى التحولات التي تحدث فيها، ومن هنا تأتي (بنية اللغة) (٣٧).

والكلمة في الغرب أو عند الغربيين بنية "structure" مشتقة من الفعل اللاتيني "struere" بمعنى يبني أو يشيد (٣٨).

ومن خلال الدلالة اللغوية لكلمة (البنية) يظهر أنها موضوع منتظم، له صورته الخاصة، ووحدته الذاتية، فتكون أي زيادة في المبنى زيادة في المعنى، فيؤدي كل تحول في البنية إلى تحول في الدلالة؛ لأن كلمة (البنية) في أصلها تحمل معنى المجموع والكل، وأنها عبارة عن ظواهر متماسكة يتوقف كل منها على ما عداه، ويتحدد من خلال علاقاته بما عداه.

ثانياً: الدلالة الاصطلاحية لكلمة البنية:

لقد عَرَفَ تحديد مصطلح البنية مجموعة من الاختلافات، ترجع إلى تمظهر البنيوية وتجليها في أشكال متنوعة عديدة، لا تسمح بتقديم قاسم مشترك بينها.

فالمفهوم المحدد للبنيوية ليس له وجود في الفكر الغربي فضلاً عن وجوده في الفكر العربي، فمصطلح البنيوية يعتبر من المصطلحات القلقة في الفكر المعاصر، حتى عند أقطاب البنيوية نفسها (منهم الفرنسيون الذين ارتبط المفهوم باسمهم

---

(٣٦)انظر: المرجع نفسه (ص١٣٨).

(٣٧)ولزيادة بيان للمدرسة الروسية الشكلانية ونقدها، انظر: قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية (ص١٠١-١١٧).

(٣٨)انظر: حمودة، المرايا المحدبة (ص١٦٦).

وكتاباتهم وتفكيرهم) لا يوجد عندهم مصطلح محدد بالضبط، بل وصل بهم أن يختلف مفهوم البنية عند الشخص الواحد منهم(٣٩).

وقد قرر ذلك ميشل فوكو(٤٠) –أحد أقطاب البنيوية- فقال: "إنه من الصعب إعطاء مفهوم للبنيوية، وذلك لأنها تجمع اتجاهات ومباحث وطرقاً مختلفة، إنها مجمل المحاولات التي تقوم بتحليل ما يمكن تسميته بالوثيقة؛ أي: مجمل العلامات وآثار الإنسان التي تركها خلفه، والتي مازال يتركها إلى يومنا هذا"(٤١).

فالبنيوية تجمع كثيراً من المناهج النقدية، كل منها يعطي محاولة في فهم دلالة الكلمة، "ولا شك أن كل هذه التطبيقات التي عرفها منهج التحليل البنيوي، هي التي جعلت من البنية كلمة واسعة فضفاضة لا تكاد تعني شيئاً، لأنها تعني كل شيء"(٤٢).

وقد اشترط "جان بياجيه" لإعطاء تعريف موحد للبنية التمييز "بين الفكرة المثالية الإيجابية التي تُغطي مفهوم البنية في الصراعات أو في آفاق مختلفة أنواع البنيات، والنوايا النقدية التي رافقت نشوء وتطور كلٍّ واحدة منها مقابل التيارات القائمة في مختلف التعاليم"(٤٣)، وهو بهذا يعترف بعدم وجود مثال مشترك ووسائل واضحة للفهم عند البنيويين في مجالاتهم المختلفة (الرياضيين، اللغويين، ...)، إضافة إلى اختلاف نواياهم، فعلى سبيل المثال حين يرى بعض البنيوية في الرياضيات أنها تتعارض مع تجزئة الرموز غير المتجانسة وإنما يحاولون إيجاد الوحدة بينها، وطريقة تركيب هذه العناصر قد تكون من لوحة أو مجموعة لوحات تشير إلى نتائج تركيب كل عنصرين معاً(٤٤). وأما اللغويين فيرون أن البنية قد تجاوزت تلك الأبحاث، وأنها (أي البنية) كتلة واحدة وأي زيادة في المبنى يؤدي إلى زيادة في المعنى... كما سبق في الدلالة اللغوية لكلمة (البنية).

---

(٣٩)وانظر لمدى أثر الماركسية على البنيوية: سعد الله، محمد سالم، سجن التفكيك، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، (ص٤٥-٤٧).زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مكتبة مصر، (ص١٩١-١٩٨).

(٤٠)انظر: حمودة، المرايا المحدبة (١٦٦-١٦٧).

(٤١)انظر: قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية (ص١٢٤-١٢٥).

(٤٢)انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، (٩٤/١٤).زكريا إبراهيم، مشكلة البنية (ص٢٩).

(٤٣)انظر: زكريا إبراهيم، مشكلة البنية (ص٢٩).

(٤٤)انظر: وردة مداح، التيارات النقدية الجديدة عند عبدالله الغذامي (ص١٣). السعافين، إبراهيم، وعبدالله الخياص، مناهج تحليل النص الأدبي (ص٦٨-٦٩)،جامعة القدس المفتوحة، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م. صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي (ص١٧٧).

وذهب بعضهم إلى إبطال تعريف "جان بياجيه" للبنيوية، وأنه لا يتعدى أن يكون مفهوماً معقداً وثانوياً، بل إنه شوش كثيراً على ميادين الفكر البنيوي الأساسية(٤٥).

فتبين أن السبب في غموض المصطلح البنيوي واختلافه وصعوبة ضبطه حتى عند البنيويين أنفسهم يرجع إلى اعتباره خليطاً متداخلاً من مجموعة مناهج نقدية متعددة. وفي ذلك يقول تيري إيغلتون: "إن كلمة بنيوية ذاتها تشير إلى منهج في البحث يمكن تطبيقه على مجال كامل من الموضوعات، من مباريات كرة قدم، وحتى أساليب الإنتاج الاقتصادية..." (٤٦).

وإذا كان أمر البنيوية كذلك فإن وصفها عند بيان مفهومها أدق من جعل تعريف محدد لها، وقد سار على ذلك أغلب من كتب عنها سواء من الغربيين أو العرب(٤٧).

فَتُعنى "البنيوية في معناها الواسع بدراسة ظواهر مختلفة كالمجتمعات والعقول واللغات والآداب والأساطير، فتنظر إلى كل ظاهرة من هذه الظواهر بوصفها نظاماً تاماً، أو كلاً مترابطاً، أي بوصفها بنية، فتدرسها من حيث نسق ترابطها الداخلي لا من حيث تعاقبها وتطورها التاريخيين، كما تُعنى أيضاً بدراسة الكيفية التي تؤثر بها بُنى هذه الكيانات على طريقة قيامها بوظائفها. أما في معناها الضيق والمألوف فالبنيوية محاولة لإيجاد نموذج لكل من بنية هذه الظواهر ووظيفتها، على غرار النموذج البنيوي للغة؛ وهو النموذج الذي وضعته الألسنية في أوائل القرن العشرين..." (٤٨).

وعلى هذا فالبنيوية لها امتداد في علوم كثيرة كالسياسة والاجتماع...، كما يتبين أن البنيوية مرتبطة أساساً باللسانيات؛ لأنها هي التي أتاحت للوعي أن يكشف خبايا اللغة الطبيعية، فاللغة هي المنشأ الأول للمنهج البنيوي، وهي بذلك فرع من الألسنية، وهذا ما جعل "كلود ليفي شتراوس" يقول كلمته المشهورة: "روضت العلوم الإنسانية نفسها منذ قرون على النظر إلى العلوم الطبيعية على أنها من الفردوس الذي

---

(٤٥)ميشيل فوكو فيلسوف فرنسي، يعتبر من أهم فلاسفة القرن العشرين، ولد في فرنسا سنة (١٩٢٦م)، تأثر بالمنهج البنيوي كثيراً، وصار أحد أعلامه، له مؤلفات كثيرة منها: "الكلمات والأشياء" و "نظام الخطاب"، توفي في باريس سنة (١٩٨٤م). انظر:كريزويل، عصر البنيوية (ص٢٨٩)، ستروك، البنيوية وما بعدها (ص١١٣-١٥٧).

(٤٦)بغورة، الزواوي، ميشيل فوكو في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، (ص٢٦).

(٤٧)زكريا إبراهيم، مشكلة البنية (ص٧).

(٤٨)انظر: بياجيه، البنيوية (ص٧).

لن يتاح لها دخوله أبداً، ولكن فجأة ظهر منفذ صغير انفتح بين هذين الحقلين، والفاتح لهذا المنفذ هو الألسنية"(٤٩).

وفي هذا إشارة من (شتراوس) إلى الجمود الفكري الغربي في النظر إلى العلوم التجريبية ونتائجها الطبيعية، وكيف أن بتر دلالات النصوص وقطعها عن التأثيرات المحيطة بها والتأثير في المعنى أفسح المجال لإعادة النظر في المسلمات الأخرى وإخضاعها للفحص والبحث العلمي، كما تفعل البنيوية التي حطمت الحق المطلق في النص اللغوي.

ومن خلال ما سبق يمكن صياغة مفهوم للبنيوية فيقال: هي منهجية نقديةٌ تحليلية، تقوم فلسفتها على اعتبار البنية الذاتية للظواهر بمعزلٍ عن محيطها الخارجي والتأثيرات الأخرى، فهي تنظر إلى تلك الظواهر من الداخل، وتفترض أنها مغلقة على ذاتها، كانت قد نشأت النظرية أساساً في مجال اللغة ثم توسعت تطبيقاتها لتشمل مجالاتٍ عدة في الظواهر الاجتماعية والسياسية وغيرها وتوسعت حتى أصبحت من مناهج البحث العامة ومصادر المعرفة في الفكر الحديث.

وقد أرجعت البنيوية أنواع الثقافات جميعها إلى اللغة، بعد أن ادعت أن اللغة هي المهيمنة على أنشطة الإنسان جميعها، وقامت بتطبيق النظرية الألسنية على مواضيع أخرى غير اللغة ذاتها(٥٠).

وترى البنيوية أن هناك أسبقية للكل على الأجزاء، وعمل الناقد هو عزل النص عن الأحداث التاريخية والاجتماعية...، فيدرسه على أنه نص مجرد الوجود، ومن خلال بنائه الداخلي تشكل بناؤه العام وعلاقات هذه البنى مع بعضها البعض(٥١).

فهو منهج يدرس النص في ذاته ومن أجل ذاته، ويتعامل معه بعيداً عما يدور خارجه، كعلاقته بالواقع الاجتماعي، وأحوال قائله النفسية، ... فهو يتعامل مع النص باعتباره بنية مستقلة.

---

(٤٩)انظر: صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي (ص١٤٣-١٤٤)

(٥٠)انظر: جاكسون، بؤس البنيوية (ص٥٣).

(٥١)انظر: نيوتن، نظرية الأدب (ص١٧٥).

فالبنيوية تسهم في "عملية التأثير والتأثر، فهي على هذا الأساس تفسر الحدث من خلال البنية، والبنية هي ذلك النسق المتكامل الذي يتألف من أصوات وكلمات ورموز وصور وموسيقى، ولذلك قيل إن التحليل البنيوي يحمل مدلولاً مكثفاً ومعقداً"[٥٢].

وخلاصة الكلام عن مصطلح البنيوية ونقده، يمكن إجماله في خمس نقاط، هي:

١) تعدد المعنى؛ إذ كل مؤلف يقدم تصوره الخاص عن البنية، وهذا يقتضي التحليل لكلمة بنية لدى كل مؤلف، بل أحياناً لدى المؤلف نفسه في كل كتاب على حدة؛ وسبب ذلك يرجع إلى أن البنيوية تهمل المعنى وتهتم بالنظم والنسق.

٢) أن مفهوم البنية يتوقف على السياق بشكل كبير، وعلى هذا فالفكر البنائي فكرٌ لا مركزيٌّ؛ لأن محور العلاقات لا يتحدد مسبقاً، وإنما يختلف موقفة باستمرار داخل النظام الذي يضمه مع غيره من العناصر.

فالكلمة الواحدة في النسق اللغوي لا يعرف معناها إلا من خلال اختلافها عن الكلمات في النسق نفسه ثم في الكلمات الأخرى داخل النص، وعلى هذا فلا يمكن للمعنى أن يكتمل إلا بقراءة النص كاملاً، الذي بدوره (أي النص) يحيل القارئ إلى نص ثانٍ يحيله إلى نص ثالث، وهذا يعني أن فهم المعنى النهائي للنص لا يمكن فهمه إلى ما لا نهاية[٥٣].

١- المرونة التي تميز بها مصطلح البنيوية، والتي جعلته لا يخلو من الإيهام والاختلاط، فتناوبت عليه عمليات توصيفية مختلفة، كما ترجع هذه المرونة إلى نسبية مفهومه.

٢- أن البنيوية بهذه الطريقة قد أهدرت خصوصية النص، وذاتية المؤلف، وتاريخية النص التكوينية، فعندهم أنه لا شيء خارج النص وهو الشعار الذي يسمونه "موت المؤلف".

---

(٥٢)انظر على سبيل المثال: جاكسون، بؤس البنيوية (ص٥٩). الرويلي، ميجان، وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥م، (ص٦٧).

(٥٣)انظر: جاكسون، بؤس البنيوية (ص٤٧).

٣- أن البنيوية تنفي وجود أي واقع غير واقع اللغة، فالواقع في نظر المنهج البنيوي ألسني بأكمله(٥٤).

نظرية النظم عند الجرجاني والمنهج البنيوي :

عند الحديث عن مفهوم البنيوية تجدر الإشارة إلى ما ادعاه بعض البنيويون العرب أن "نظرية النظم" التي ذكرها عبدالقاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" تعني المفهوم البنيوي، بل إن نظرية النظم عند الجرجاني هي صلب الموضوع في الدراسات البنيوية الحديثة(٥٥).

ومما صرح بذلك جودت الركابي(٥٦)- من النقاد البنيويين العرب- على هذا فقال: "ما رأيكم في هذا الكلام (يقصد نظرية النظم عند الجرجاني) الذي قبل قرون سحيقة على لسان عبقري من عباقرة لغتنا، وأية نظرة صائبة في بيان اللفظ بالمعنى أو بما يسميه نقادنا العرب بـ(السياق)" (٥٧).

كما صرح بذلك البنيوي العربي محمد مندور بقوله: "وفي الحق إن عبد القاهر قد اهتدى في العلوم اللغوية كلها إلى مذهب لا يمكن أن نبالغ في أهميته، مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النظير. وعلى أساس هذا المذهب كون مبادئه في إدراك "دلائل الإعجاز". مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا لأيامنا هذه، هو مذهب العالم السويسري الثبت فرديناند دي سوسير Ferdinand de saussure الذي توفي سنة١٩١٣م"(٥٨).

إلا أن هناك فرقاً بين مفهوم المنهج البنيوي والذي يعني كما سبق منهجية تقوم بتحليل النص وتفسيره بمعزل عن محيطة الخارجي، بينما نظرية النظم عند الجرجاني تعني: "أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف

(٥٤)وهناك تعريفات مشابهة، انظر: الرويلي والبازعي، دليل الناقد الأدبي (ص٦٧-٦٨).زكريا إبراهيم، مشكلة البنية (ص٢٩-٣٠). القرني، محمد بن حجر، موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام، مركز البحوث والدراسات، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ، (ص١٨٣).صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي (ص٧٦).

(٥٥)الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية (ص٢٩).

(٥٦)انظر: قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية (ص١٢٠-١٢١).

(٥٧)انظر: جاكسون، بؤس البنيوية (ص٤٨).الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية (ص٤٠-٤١).

(٥٨)مرتاض، عبدالملك، النص الأدبي من أين وإلى أين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الرابعة، (ص٥) نقلاً عن كتاب بنية الخطاب الروائي (ص١٩).

مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"(٥٩).

هذا من حيث اختلاف نظرية النظم عند الجرجاني مع البنيوية في المفهوم.

أما من حيث تحليل النص ومعرفة المراد منه فإن المنهج البنيوي يقوم ببتر النص وعزله عن قائله وفكره ووجدانه، وكل ما يحيط به من مؤثرات، فيتعامل مع النص على أنه قالب جامد، ثم يفسر النص بمعانٍ غير مقصودة، بل ولا يحتملها النص.

أما نظرية النظم عند الجرجاني فهي تعتمد في ترتيب معاني النصوص، وتوضيح معانيها، بإخضاعها لضوابط، حيث يرُجع ذلك كله لقوانين النحو وأصوله، وقد بين ذلك الجرجاني بقوله: "وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: "زيد منطلق" و "زيد ينطلق" و "ينطلق زيد" ...، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت ...، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعاً، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع ...، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه نحو أن يجيء بـ "ما" في نفي الحال، وبـ "لا" إذا أراد نفي الاستقبال وب "إن" فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون وبـ "إذا" فيما علم أنه كائن، وينظر في الجمل التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع "ثم"، وموضع "أو" من موضع "أم"، وموضع "لكن" من موضع "بل" . ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار فيضع كلاً من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له، وهذا هو السبيل، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة

(٥٩)انظر: المسيري، عبدالوهاب، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، (ص١٤٦-١٤٨).

نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه"(٦٠).

هكذا تقوم نظرية النظم عند الجرجاني في بيان معاني النصوص، حيث تعتمد على تتبع معاني النحو، ولا يبتكر معاني جديدة لا يقصدها صاحب النص، أو بعيدة عن مراده، بل يدور في بيان ذلك مع النص، وما يريد به صاحبه بضابط القواعد النحوية.

وبعد هذا وبعد البيان لمفهوم نظرية النظم، وكيفية استخراجها لمعاني النصوص، وما بينها وبين المنهج البنيوي من بون شاسع في ذلك كله، يجاب على من ادعى من البنيويين العرب بأن نظرية النظم عند الجرجاني هي نفس المنهج البنيوي في الدراسات النقدية الحديثة؛ أن عالم اللغة الجرجاني، وغيره كابن فارس... هم حريصون "على أن لا يشتغل الإنسان إلا بما يفيده من علم اللغة، وتدعو إليه حاجة بيانيَّة أو شرعية. لكنها الفتنة العمياء التي تجعلنا نركض بلا عقل أو فكر، ونسارع إلى نسبة كل فكرة إلى عالم من أعلامنا، ولو كان فيها تنقصهم، والإزراء بقدرهم وفكرهم"(٦١).

المطلب الثاني: خصائص البنيوية

إذا كانت البنية عبارة عن نظام له قوانينه الذي يحكم بين أجزائه؛ إذ إن كل تحول في البنية يؤدي إلى تحول في الدلالة، إذاً لابد أن يكون للبنية خصائص معينة، وهي ثلاث:

١- الكلية والشمول:

والمقصود بهذه السمة أن البنية لا تتألف من عناصر خارجية تراكمية مستقلة عن الكل، بل هي تتكون من عناصر خارجية خاضعة للقوانين المتميزة للنسق، وليس المهم في النسق العنصر أو الكل بل العلاقات القائمة بين هذه العناصر.

فهي تعني خضوع العناصر التي تشكل البنية لقوانين تميز المجموعة كمجموعة، أو الكل ككل واحد.

---

(٦٠)انظر: ساخاروفا، من فلسفة الوجود إلى البنيوية (ص١٦٥-١٦٦)

(٦١)وانظر لزيادة ايضاح: التيارات النقدية الجديدة عند عبدالله الغذامي (ص١٥).

وهذه الخاصية انطلقت منها البنيوية في نقدها للأدب من المسلَّمة القائلة بأن البنية تكتفي بذاتها، ولا يتطلب إدراكها اللجوء إلى أي عنصر من العناصر الغريبة عنها وعن طبيعتها، فالنص الأدبي مثلاً هو بنية تتكون من عناصر، وهذه العناصر تخضع لقوانين تركيبية تتعدى دورها من حيث هي روابط تراكمية تشد أجزاء الكيان الأدبي بعضه ببعض، فهي تضفي على الكل خصائص مغايرة لخصائص العناصر التي يتألف منها(٦٢).

وأذكر مثالاً لتقريب المعنى، وهو أن العددين (١) و (٢) لكل منهما خصائص، ولكن عندما نركب منهما عدداً جديداً هو العدد (٢١) فإن هذا التركيب أضفى عليهما خاصية جديدة، وهكذا لو تغير وضعهما تكون تركيباً آخر وهو العدد (١٢).

وبناء على ذلك فإن خاصية شمولية البنية وكليتها أمر ضروري ولا يسوغ الاكتفاء بأجزاء منها عند الدراسة أو إقحام أجزاء أخرى عليها، لأن هذا العمل يؤدي إلى تعديلات على البنية وعلى خصائصها التي تتميز بها في إطارها البنائي.

٢- التحولات :

وخاصية التحولات تعني أن هناك قانوناً داخلياً يقوم بالتغيرات داخل البنية التي لا يمكن أن تظل في حالة ثابتة؛ لأنها دائماً في تغير.

فكل نص في نظر البنيوية يحتوي ضمنياً على نشاط داخلي يجعل من كل عنصر فيه عنصراً بانياً لغيره ومبنياً في الوقت ذاته، وهذه الخاصية تحاصر تحوّل البنية وما قد يعتريها من بعض التغيير(٦٣).

إن خاصية التحولات في البنيوية سبب لبزوغ أفكار جديدة، فالبنيوية لا يمكن أن تظل في حال سكون مطلق، وإنما هي خاضعة للتحولات الداخلية، فالأفكار التي يحتويها النص الأدبي تكون سبباً لظهور أفكار جديدة إذا ما دخلت عليها التحولات(٦٤).

(٦٢)جودت الركابي، ولد في دمشق سنة (١٩١٣م)، تحصل على الدكتوراة في الفلسفة من باريس، وهو عضو جمعية النقد الأدبي، توفي سنة (١٩٩٩م)، وله مؤلفات كثيرة أغلبها في الأدب، منها: "الأدب العربي ونصوصه" و"الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار". انظر: موقع اتحاد الكتاب العرب في سوريا.

(٦٣)جودت الركابي، أدبنا والبنيوية، مقال في مجلة الموقف الأدبي عدد (٢٢١، ٢٢٠) ١٩٨٩م.

(٦٤)مندور، محمد، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، (ص٣٣٣-٣٣٤).

مثال ذلك في الأرقام، فإنه من المعلوم أساساً أن ١+١=٢، بالقدر نفسه الذي تدرك فيه أن الرقم (٢) أقل من الرقم (٣)، كما تدرك أنه يسبقه في التسلسل العددي، أو أن (٢) يختلف عن (١) ويختلف عن (٣). [٦٥].

٣- التنظيم الذاتي:

وهذه الخاصية تعني أن البنية تستطيع أن تنظم نفسها بنفسها؛ لتحافظ على وحدتها واستمراريتها.

فالبنيويون يقولون (جان بياجيه مثالاً) إن أي بنية باستطاعتها أن تضبط نفسها ضبطاً ذاتياً يؤدي للحفاظ عليها، ويضمن لها نوعاً من الانغلاق الإيجابي، وهو ما يجعل البنية تحكم الذاتية بمكوناتها بحيث لا تحتاج إلى شيء آخر يلجئ المتلقي ليستعين به على فهمها ودراستها وتذوقها، ولكن هذا كله لا يحول دون دخول بنية فرعية في بنية أخرى أوسع مجالاً[٦٦].

ولعله يتبين من خلال هذه الخصائص أنها تشكل هوية البنية فهي شاملة متحولة منتظمة متحكمة في ذاتها، متميزة عن كل ما سواها، وهذا الاختلاف هو الذي يميزها عن غيرها، لا تحتاج إلى غيرها من (البنى) حتى يفهم معناها[٦٧].

كما يظهر أن هناك علاقة بين هذه الخصائص الثلاث؛ فالنسق بكامله ليس ثابتاً جامداً في البنية، بل هو متحرك، في إطار تنظيمه الذاتي الذي يضبط العناصر وعلاقتها فتحافظ على كيانها وتماسكها واستمراريتها.

المطلب الثالث: أدوات البنيوية

إن اللغة كما سبق هي المنشأ الأول للمنهج البنيوي، والمنهج البنيوي له ارتباط أساسي باللسانيات، بل هو فرع منها، والناقد البنيوي في نقده البنيوي لا بد وأن يحتاج في نقده إلى مفاهيم وأدوات معينة يتوصل بها إلى فهم النص، وقد أجملت هذه المفاهيم أو أدوات البنيوية في ثلاث[٦٨]، هي:

---

(٦٥)الجرجاني، أبوبكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، (ص٧٧).

(٦٦)المصدر نفسه (ص٧٧-٧٨).

(٦٧)العايد، أسس علم اللغة العام وتطبيقاته على اللغة العربية.

(٦٨)انظر: بياجيه، البنيوية (ص٩-١١)، مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر (ص٢٣). خليل، إبراهيم محمود، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، (ص٩٥).زكريا إبراهيم، مشكلة البنية (ص٣٠).

الأولى: النسق:

والنسق يقصد به البنية كاملة، بما فيها من عناصر، وتعني (البنية) العلاقات القائمة بين هذه العناصر، فأي عنصر لغوي تتحدد قيمته حسب وقوعه في النص، وما بينه وبين غيره من علاقات داخل النص، بحيث لا يكون لأي عنصر من عناصر النسق أي دلالة بمفرده، إلا إذا ارتبط بغيره من العناصر.

ووظيفة الناقد البنيوي هو النظر في علاقة كل عنصر داخل البنية ببقية العناصر، واكتشاف قيمته ودلالته التي اكتسبها من خلال منظومة العلاقات التي تنظم عناصر النص الأدبي، وهي التي بدورها (العلاقات) تنتج بنية النص، فتنتج النسق. وقد بين الدكتور عبدالعزيز حمودة ما يتعلق بمفهوم النسق، وكيفيه تكونه، وتطبيقه في مجال اللغة والأدب، فقال: "إنّ اللغويات البنيوية عند تعاملها مع النص اللغوي تقوم بالبدء من نقطة صغرى: فتبدأ بتحديد العناصر التي ربما لا يكون لها معنى، مثل: الفونيمات، وهي أصغر عناصر تكوين اللغة. ثم ينتقل التحليل البنيوي لرصد تجميع هذه العناصر في وحدات ذات معنى، وهي الكلمات، ثم كيف تجمع هذه الوحدات الدلالية الصغرى في نظام أوسع أو نسق أكبر، وهو اللغة. لكن الكلمة بمفردها – معزولة خارج نسق – لا يمكن أن تدل أو تشير إلى وحدة أخرى معزولة، ولهذا نتحول إلى النسق الأصغر، وهو الجملة. داخل النسق الأصغر، تصبح الوحدة الصغرى(أي الكلمة المفردة) جزءاً من نسق دالٍّ وتكتسب دلالتها الأوسع من علاقتها مع الوحدات الأخرى داخل النسق. المرحلة التالية أكثر تركيبية وتعقيداً، وهي ربط هذه الجمل/الأنساق الصغرى وتجميعها داخل نسق أكبر، هو النص. في النسقين السابقين تتحدد دلالة الوحدة (الكلمة في الجملة، والجملة في النص) عن طريق علاقاتها مع الوحدات الأخرى في ظلّ مبدأ اتفق حوله البنيويون جميعاً، وهو التضادّات الثنائية Binary Oppositions. وهناك نسق ثالث هو النسق العام أو النظام الذي يحكم الإنتاج الفردي للنوعGenre ، وهو نسق نتحرك في اتجاهه انطلاقاً من

النصوص الفردية، أو منطلقين منه في اتجاه النص الفردي في تحليل تطبيقي يؤكد اتفاق النص المفرد أو النسق الأصغر، أو اختلافه مع النسق أو النظام العام"(٦٩).

الثانية: التزامن

والتزامن يعني زمن حركة العناصر مجتمعة داخل البنية، وحركة هذه العناصر تكون في زمن واحد، في نظامها الذاتي، وهذا التزامن مرتبط بما هو كائن، وليس بما هو طور التكون، وتكوين البنية، وكما سبق في ذكر خصائص الحركات أن منها التحولات المنتظمة بحسب نظام متناسق، وقوانين خاصة تحكمها "فإذا كان استمرار النظام يفترض استمرار البنية وثبات نسقها، فإن التزامن يرتبط بهذا الثبات"(٧٠).

وعمل الناقد البنيوي هو عزل البنية عن غيرها حتى يتمكن من رصد العناصر التي بداخلها، وما بينها من تناسق، وما يحكمها من نظام.

الثالثة: التعاقب:

التعاقب يعني زمن تحرك البنية وصيرورتها وتكونها، ولا يمكن فصل التعاقب عن التزامن؛ إذ إن التزامن يشير إلى استمرار البنية، وإن التعاقب يعني استمراريتها. فالتعاقب يرتبط بزمن تغيير العنصر وليس زمن تغيير البنية ككل، وبهذا الأمر تكفل استمرار البنية.

فالتعاقب بعبارة أدق (عند البنيويين) هو زمن تخلخل البنية وتهدم أحد عناصرها، الأمر الذي يجعل البنية تنفتح على الزمن حتى تستعيد عنصراً آخر بدلاً من العنصر الذي انهدم، وبذلك تستعيد البنية نفسها وتستمر.

وبعد سرد أدوات الناقد البنيوي، فإن استخدامه لها في نقده للنص يمكن إيجازه في نقاط عدة مرتبة على النحو التالي:

١) تحديد البنية (موضوع الدراسة).

---

(٦٩) بياجيه، البنيوية (ص١١-١٣).مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر (ص٢٣).خليل، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك (ص٩٦).زكريا إبراهيم، مشكلة البنية (ص٣١).

(٧٠) خليل، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك (ص٩٦).زكريا إبراهيم، مشكلة البنية (ص٣١).

٢) عزل البنية عن مجالها الخارجي (لا شيء خارج النص) كحال المؤلف ونفسيته، والتاريخ.

٣) البدء في تحليل البنية للوصول إلى عناصرها، ويجتهد في الوصول إلى دلالاتها، ويدرس أنساقها الخاصة.

ومن خلال دراسة العناصر، وكشف أنساق العلاقات بينها، والنظر إلى العنصر في سياق النص، يتوصل الناقد البنيوي إلى ما يحكم هذه العلاقات، والذي يتوصل به إلى المعنى المراد.

ولا يخفى أن هذه المنهجية التي تستند إلى بتر النص اللغوي عن محيطه وكافة المؤثرات المرتبطة به، كعقيدة وفكر بل ووجدان الكاتب، وما ارتبط بالإطار الفكري الحاكم للنص من مؤثرات محيطه المرتبط به، هذه المنهجية تمثل مستوى واحداً من مستويات النقد الأدبي، وأما المستويات الأخرى لبيئة النص الخارجية وتاريخيتها وعقيدة الكاتب وفكره فتتجاهلها البنيوية متعمِّدةً ذلك، بناءاً على مادية الفكر البنيوي الذي يتعامل مع النصوص اللغوية كقوالب جامدة لا تحمل من المعاني إلا ما تضمنته وثيقة النص فحسب، ويمكننا تقييم هذه المنهجية بأنها منهجيةٌ سطحيةٌ وساذجة تهدم دلالات النصوص وثراء اللغة. كما تلغي مقاصد الكاتب ومراداته، وهي بذلك تستبدل المعاني وإن شئت فقل تحرفها وتنقلها عن مراداتها إلى سياقاتٍ جديدة غير مقصودة ومعاني لا يحتملها النص .

<u>مثال: تطبيق المنهج البنيوي على النصوص</u>

يهتم المنهج البنيوي بسطح العمل الأدبي، وبنيته، ولغته، ولا علاقة له بما يتضمنه النص، والبنيوية تمثل قطيعة مع النقد الأدبي التقليدي، وسبب ذلك يرجع إلى اهتمامها باللغة فقط، حيث تأخذ النص في مكان مغلق، لا علاقة له بقائله، ولا مقصوده، ولا هو تعبير عن ذات، كما تقدم، فالمنهج البنيوي منهج لا إنساني[(٧١)]، وهناك نماذج كثيرة على تطبيقات المنهج البنيوي على النص، وسأتناول نموذجاً بسيطاً، ذكره تيري إيغلتون يتضح به كيف يقوم الناقد البنيوي بعملية نقد النص، والوقوف على بنيته، ومدى العلاقات التي تربط عناصره، فيقول: "دعوني أحاول إيضاح ذلك من خلال مثال

(٧١)انظر: بياجيه، البنيوية (ص١٢).

بسيط، لنفترض أننا نحلل قصة صبي يغادر البيت إثر نزاع مع والده، وينطلق سيراً على الأقدام عبر غابة في حرِّ الظهيرة، ثم يسقط في حفرة عميقة، ويخرج الأب باحثاً عن ابنه، ويصل إلى الحفرة، ويمعن النظر فيها، لكنه لا يستطيع أن يراه بسبب الظلمة، وفي اللحظة التي ترتفع فيها الشمس إلى نقطة فوقه مباشرة، تنير بأشعتها أعمال الحفرة، وتتيح للأب إنقاذ طفله، وبعد مصالحة بهيجة يعودان إلى البيت معاً"(٧٢).

هذه القصة (النص الأدبي) الذي يريد (تيري إيغلتون) تحليله باستخدام المنهج البنيوي، فيقول: "لعل هذا ليس بالسرد الآسر على نحو خاص، لكنه يتسم بميزة البساطة، ومن الواضح أن من الممكن تأويله بشتى الطرق. حيث يمكن لناقد تحليلي نفسي أن يجد فيه آثاراً محددة من عقدة أوديب(٧٣)، ويبين أن سقوط الطفل في الحفرة هو عقاب يتمناه لنفسه في لا وعيه نظراً لنزاعه مع أبيه، وربما هو شكل من التجاء رمزي إلى رحم أمه. ويمكن لناقد إنسانوي أن يقرأه بوصفه مسرحية لاذعة لما تنطوي عليه العلاقات الإنسانية من مصاعب. ويمكن لناقد آخر أن يراه بمثابة تلاعب محض ومتكرر بلفظتي (son/sun) - وتعني الابن والشمس- .

أما الناقد البنيوي فيعمل على ترسيم القصة بشكل بياني إحداثي، وقد يعيد كتابة وحدة التدليل الأولى، "الصبي يتنازع مع أبيه"، على النحو التالي: "الأدنى تمرد على الأعلى" ويعتبر مسير الصبي عبر الغابة حركة حول محور أفقي، بخلاف المحور العمودي "أدنى/أعلى"، ويشير إلى اعتباره "وَسَطاً". أما السقوط في الحفرة، وهي مكان تحت مستوى الأرض، فيدل على "أدنى" ثانية، بينما يدل سَمْتُ الشمس على "أعلى". وبسطوع الشمس على الحفرة، فإنها تنحني بمعنى ما إلى "أدنى"، فتقلب بذلك وحدة السرد الدَّالة الأولى، حيث كان "أدنى" يقف في مواجهة "أعلى" ، والمصالحة بين الأب والابن تستعيد توازناً بين "أدنى" و"أعلى"، كما تدل مسيرة العودة معاً إلى البيت على "وسط"، وتبين أن هذا الفعل هو حالة وسطية ملائمة، وهنا يعيد البنيوي ترتيب مساطره إلى القصة التالية، وعلى محيَّاه ترتسم علامات الظفر"(٧٤).

---

(٧٢)انظر: بياجيه، البنيوية (ص١٣-١٤).مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر (ص٢٣).

(٧٣)انظر: الغذامي، الخطيئة والتكفير (ص٣٢-٣٣).

(٧٤)انظر: يمنى العيدي، في معرفة النص "دراسة في النقد الأدبي"، دار الآداب بيروت، ١٩٩٩م، (ص٣٢-٣٧).

ومن خلال هذا التحليل للنص تتبين وظيفة الناقد البنيوي التي لا تتعدى أن تكون وظيفته في تحليل النص توضيح تعدد المعنى له، وعدم حصر معنى النص فيما أراده كاتبه أو قائله.

وتعدد المعنى راجع إلى تعدد المناهج التي تحلل النص كما تقدم، فالناقد النفسي يحلل النص كما يظهر له أن عقدة أوديب وأن سبب سقوط الابن في الحفرة هو عقاب يتمناه الطفل لنفسه نتيجة نزاعه مع أبيه، بينما يرى الناقد البنيوي خلاف ذلك كما تقدم في نص القصة.

المبحث الثالث: البنيوية في العالم العربي والإسلامي

المطلب الأول: ظهور البنيوية في العالم العربي والإسلامي

كانت بداية ظهور البنيوية في العالم العربي والإسلامي في أواخر الستينات من القرن العشرين، ولم يكن لها أثر قبل ذلك، وكان أول من كتب فيها من العرب هو محمود أمين العالم في مجلة "المصور" المصرية سنة (١٩٦٦م) وأطلق عليها اسم "الهيكلية"، إلا أن البنيوية لم تبرز ويظهر الاهتمام بها إلا في أواخر السبعينات، وذلك عندما نشر عدد من النقاد في المشرق والمغرب العربي دراسات عن البنيوية[٧٥].

ولعل سؤالاً يتبادر إلى ذهن القارئ، كيف وصل هذا المنهج الحداثي إلى العالم العربي والإسلامي؟

والجواب عن هذا السؤال يكون في القول بأنه "لم تكن الحداثة نقطة بداية الشرخ؛ بل كانت مرحلة متأخرة يرى البعض أنها بدأت بعد نكسة (١٩٦٧م)، والواقع أن الحداثة وما بعدها كانتا نتيجة ولم تكونا سبباً. صحيح أنهما تمثلان ذروة سبقتها عملية اتجاه واعية ومدركة نحو الغرب وثقافته،... بدأت الحداثة في الأدب والنقد مع بداية ما سمي بعصر النهضة، بكلمة أكثر تحديداً، إن نقطة البدء، أو البذرة الأولى للحداثة تكمن في اللقاء الاستعماري الحضاري الغربي، فقد دخل الغرب مستعمراً ومن النافذة نفسها تدفقت منجزاته الحضارية، وهو ما أدى إلى انشطارات الذات

(٧٥)وذكر (دان سبيربر) أدوات بأسماء مغايرة عما ذكر، وتعاريف تتقارب في بعضها مع ما سبق ذكره. انظر: دان سبيربر، البنيوية في الانتروبولوجيا، ترجمة: علي قانصو، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت،٢٠٠٨م، (ص٨٢-٨٤).

زمانياً (نحو الماضي) ومكانياً (نحو الغرب)... هذا الاحتكاك خلخل القيم المحلية وجعل الشخصية المحلية تهتز لأول مرة وتبدأ بالبحث عن الذات"[٧٦].

ويظهر من ذلك أنه إذا كان الاستعمار هو سبب وصول البنيوية إلى العرب، فستكون بداية البنيوية عن طريق ترجمة الكتب والمؤلفات الغربية عنها، وذلك عن طريق التبادل الثقافي، والدراسة في الجامعات الأوربية، حتى أصبح بعد ذلك منهجاً عند بعض النقاد في العالم العربي طبقوه في دراساتهم، ورسائلهم الجامعية، ولعل الدول العربية الفرانكفورية ستكون أكثر تأثراً من غيرها، وأسبق إلى تطبيق هذا المنهج.

ولعل من الجدير ذكره عند الحديث عن نشأة البنيوية في العالم العربي أن أشير إلى أبرز أعلام العرب الذين تبنوا هذا المنهج، وأعملوه في قراءتهم لكثير من نصوص الأدب العربي، مع ذكر أبرز ما كتبوه في ذلك، وهم كما يلي:

١) الدكتور جابر عصفور، مترجم كتاب "عصر البنيوية" لإديثكريزويل، ويتضح من تقدمته لهذا الكتاب تبنيه المنهج البنيوي كناقد عربي.
٢) الدكتور زكريا إبراهيم له كتاب "مشكلة البنية"، أوضح فيه مفهوم البنية، وفائدة المنهج البنيوي نتيجة استخداماته في اللغة والتحليل الفلسفي، وعلاقة البنيوية بالماركسية.
٣) الدكتور صلاح فضل، له كتاب "نظرية البنائية في النقد المعاصر" و "مناهج النقد المعاصر".
٤) الدكتور كمال الدين أبو ديب، له كتاب "جدلية الخفاء والتجلي" و "البنى المولدة في الشعر الجاهلي" و "في البنية الإيقاعية للشعر العربي" وغيرها، الذي تحدث كثيراً عن ضرورة تطوير نظرية العرب اللغوية النقدية، حتى إنه اعتبر المنهج البنيوي كالمنقذ للعقل العربي من الضلال.
٥) الأستاذ محمد عصفور، له كتاب "البنيوية وما بعدها" و"البنية الأسطورية في صراخ في ليل طويل".

---

(٧٦)حمودة، المرايا المحدبة (ص٢١٩).

ISSN : 2410-1818

وغير هؤلاء من النقاد العرب كثير ممن كانت لهم اسهامات تجاه النظرية البنيوية، منهم الدكتور زكريا عبد المجيد النوتى، والدكتور شفيق أبو سادة، والدكتور السعيد عبادة، والدكتور كمال الدين عبدالباقي لاشين، والبروفيسور هارون الرشيد يوسف النيجيري، وغيرهم[٧٧].

المطلب الثاني: البنيوية مع نصوص الوحي وتطبيقاتها

تقدم في المطلب السابق أنه تأثر بالمنهج البنيوي الكثير من النقاد والمفكرين العرب، وكان أغلب اهتمامهم في بداية الأمر في التراث العربي الإسلامي بالنصوص الأدبية، إلا أن هذا التأثير تحول فيما بعد إلى فتح العقل على التراث العربي الإسلامي ككل (النص "القرآن، السنة، مصادر التشريع..."، اللغة، التاريخ .

ومن هنا ظهر اتجاه جديد في العالم العربي والإسلامي في نقد التراث، يزعم أن تطبيقه للمناهج الحداثية (منها البنيوية والتفكيكية) يصل بها إلى نتائج جديدة وتفسيرات مبتكرة للنصوص، وجعلوا القرآن بمثابة "نص شعري" أو "نص نثري" يطبقون عليه المناهج الحداثية التي أسسها الغرب، وعملوا بقواعدها في التلقي التي تجعل من النص محكوماً بوعي القارئ، وقد أوضح جابر عصفور حال المفكر أثناء قراءته، فقال: "حالة وعي تنبثق في اللحظة التي تتمرد فيها الأنا الفاعلة للوعي على طرائقها المضادة في الإدراك...ولذلك تظل قرينة البحث الذي لا يتوقف، لتعرف أسرار الكون والسيطرة عليه فكرياً وعلمياً"[٧٨]، وهكذا يدمجون الفكر الإنساني بالنص الديني الإسلامي، بحيث يفسره بما يراه مناسباً، ويهدف من ذلك استخراج ما يسميه النقاد البنيويون باللامفكر فيه أو المستحيل التفكير فيه في المجتمعات العربية الإسلامية[٧٩]، وهم في ذلك قاموا بتحليل ما تتضمنه النصوص أياً كانت (آيات قرآنية، أحاديث نبوية، أشعاراً)، ويقوم الناقد البنيوي بذلك في خطوتين:

"الأولى: تقطيع النصوص إلى وحدات صغيرة .

---

(٧٧)يمنى العيدي، في معرفة النص (ص٣٣).

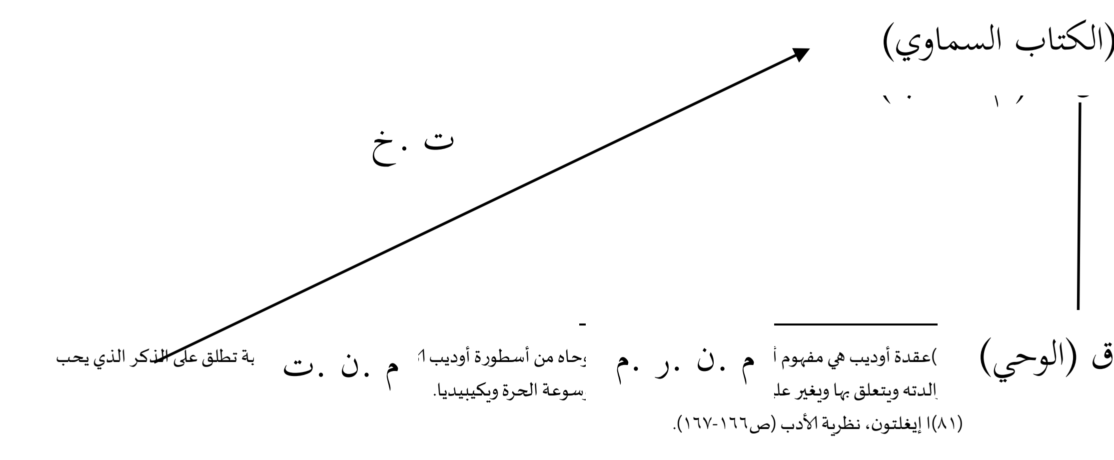
(٧٨)كما سيأتي، انظر: البنيوية من المنظور الإسلامي.

(٧٩)إيغلتون، تيري، نظرية الأدب، ترجمة: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٥م، (ص١٦٥).

والثانية: الكشف عن قواعد التجميع والتبادل والتعارض بين هذه الوحدات، وتنسيقها في بنيات تفسيرية[٨٠].

وسأذكر نموذجاً استخدم فيه محمد أركون النقد البنيوي على القرآن الكريم، عند بيانه لمفهوم وكلمة (القرآن الكريم والوحي)، وقام بتطبيق الخطوات السابقة عليه، حيث قطع كلمة (قرآن) وأرجعها إلى أنها مصدر للفعل قرأ، ثم قال "فالفكرة الأساسية تكمن في التلاوة المطابقة للخطاب المسموع، لا المقروء"، فبعد أن قطع الكلمة (قرآن) إلى وحدات صغيرة، بدأ بالخطوة الثانية وهي الكشف عن قواعد التجميع والتبادل والتعارض بين هذه الوحدات، حيث ذكر أسماء متعددة للقرآن كـ(التنزيل، والكتاب، والذكر، أو الكتابة النازلة من السماء أثناء الليلة المباركة)، بعدها عرف الذكر على أنه "التنبيه أو الإشعار"، ثم قال: "وهكذا يُدعى (أهل الكتاب) بأهل الذكر أيضاً. والمقصود أولئك الذين تلقوا الإشعار أو الذين يتأملون بخشوع بأسماء الله وتعاليمه. ثم هناك اسم الفرقان: أي التمييز والبرهان المفرِّق، وبكلمة واحدة: الوحي"[٨١].

ثم تكلم محمد أركون عن مسألة الوحي، وأنها تعد من المسائل الدقيقة جداً والحرجة لمن يريد دراستها ضمن منظوره الذي يتجاوز به التعاليم الإسلامية من استقلالية فهم النص وموت المؤلف، وأوضح ذلك برسم بياني أوضح فيه تطبيق المنهج البنيوي على كلمة (الوحي)، كما يلي:



)عقدة أوديب هي مفهوم أ... إلدته ويتعلق بها ويغير عل... ...حاه من أسطورة أوديب ... ...سوعة الحرة ويكيبيديا. ... بة تطلق على الذكر الذي يحب

(٨١) إيغلتون، نظرية الأدب (ص١٦٦-١٦٧).

ت. أ

أ . م

"تفسير الرموز والمصطلحات:

ك . ل: كلام الله.

خ . ق: خطاب قرآني (شفهي).

م . ن . ر. م: المدونة النصية الرسمية المغلقة (أو المصحف).

م . ن . ت: مدونة نصية تفسيرية (تفاسير القرآن).

أ . م: الأمة المفسرة (أمة المسلمين الذين تفسر القرآن جيلاً بعد جيل).

ت . أ: تاريخ أرضي (الدنيا في اللغة الإسلامية الكلاسيكية).

ت . خ: تاريخ الخلاص (أنواع الوحي المتتالية والمنظور الأخروي).

بعد أن يراقب القارئ الجدول البياني يلاحظ أننا قد وضعنا الحركة التي يوحي الله بواسطتها جزءاً من الكتاب السماوي إلى البشر على المستوى العمودي، وهذا دليل على رمزية النزول أو التنزيل؛ أقصد نزول الوحي من فوق إلى تحت ثم عودة الصعود نحو التعالي. أما على المستوى الأفقي فقد وضعنا التاريخ الأرضي: أي العمليات البشرية التي تنطلق من الخطاب القرآني لكي تؤدي إلى المدونة النصية الرسمية المغلقة والنهائية. وعندما نقول الخطاب القرآني فإننا نقصد العبارات الشفهية التي تلفظ بها النبي ضمن حالات الخطاب وحيثياته التي لم تنقل كلها بحذافيرها وبأمانة (أسباب النزول). ثم ننطلق من المدونة النصية الرسمية المغلقة (أي المصحف) إلى المدونة النصية التفسيرية، أي التفاسير العديدة جداً التي تعرض لها المصحف والتي كتبها المفسرون

الأكثر تنوعاً واختلافاً؛ من أجل إيضاح حقائق الوحي التي تنير سلوك البشر وأعمالهم طوال مسار التاريخ الأرضي في هذا العالم (الدنيا)، وهكذا يفهم لماذا أن كل هذه المسارات، وكل هذه المجريات أو العمليات الثقافية والعقلية، وكل هذه التصورات تجد دعامتها المحسوسة، وفضاءها الانتشاري والإسقاطي في المصحف: أي هذا المجلد المادي الذي ألمسه وأمسكه بيدي، وأنقله من مكان إلى آخر، وأقرأه وأفسره بعد أن أقوم بفرائض الوضوء والطهارة في كل مرة (لا يمسه إلا المطهرون). وهكذا نجد أن التقديس (أو الحرام) الذي يشكل بنية الوعي الديني لا يمكنه الاستغناء عن الدعامات المادية"[٨٢].

وبعد هذا كله توصل إلى صعوبة تحديد مضمون القرآن ومحتواه، على أنه فوضى تخبِّئ وراءها نظاماً دلالياً، الأمر الذي جعله يقسم الخطاب في القرآن الكريم إلى خمسة أنواع: (خطاب نبوي، تشريعي، سردي قصصي، أمثال، تراتيل)، وزعم أنها "تعلن جميعها عن القيام بدور الوحي لأن كلية الخطاب القرآني تخضع لنفس بنية العلاقات النحوية للشخوص والضمائر، فهناك الذات الإلهية التي تعبر عن نفسها تارة بضمير الشخص المفرد، وتارة بضمير الشخص الأول في حالة الجمع: أنا/نحن. وهذا الضمير يتوجه بالخطاب على هيئة الأمر (قل) لضمير الشخص الثاني (محمد) من أجل التوصل والتوصيل إلى ضمير الشخص الثالث في حالة الجمع: أي هم (البشر)." [٨٣].

ومن خلال ما سبق يتبين مصادمة هذا المنهج للنص اللغوي عموماً ولنصوص الوحي خصوصاً، فالمنهج البنيوي يعطل اللغة عن مهمتها في نقل المعاني، ويحولها إلى هياكل جامدة يعاد تركيبها وصنع دلالاتها بعيداً عن معانيها الظاهرة ومرادات قائليها، ومجرد القبول بهذه المنهجية للتعامل مع النصوص ونقدها يعني عبثيةً وفوضى لا منتهى لها، والمقصود النهائي الذي تصل إليه البنيوية هو القطيعة التامة مع التراث وإعادة تشكيل دلالات النصوص بما يوافق أمزجة البنيويين وأهواءهم.

---

(٨٢)البازعي، استقبال الآخر (ص١٧٣-١٧٤).

(٨٣)حمودة، عبدالعزيز، المرايا المقعرة، عالم المعرفة، ١٤٢٢هـ، (ص٢٥-٢٧).

المطلب الثالث: البنيوية من المنظور الإسلامي

إن البنيوية تزعم أن كل نص مستقل بذاته، ويعد بنية منفصلة قائمة بذاتها، مستغنية عن كل شيء يحيط بها، حتى عن قائلها، وهي بهذا تلغي فكرة السبب والمسبب، وأن كل حادث لا بد له من محدث، بل إنها بهذا التفكير تلغي فكرة الخالق والمخلوق، "إن هذا يعني إزاحة الذات الفاعلة، والنظر إلى الأشياء على نحو يبدو معه بناؤها نظاماً آلياً يعمل بطريقة لا واعية تتجاوز إرادة الأفراد"(٨٤).

والبنيوية بهذا التوصيف مصادمة للشرع، ومناقضةٌ لكل الأديان عموماً ولدين الإسلام خصوصاً، سواء في مجال العقائد، أو في مجال الأحكام والسلوك؛ لأن البنيوية تعيد بناء الحياة بكل مجالاتها على أساسٍ ماديٍ يستند إلى الحس والتجربة، ومنحت نفسها الحق الذي جردت منه ما سواها فادعت لنفسها تفسير النصوص والحكم عليها، والله ﷻ يقول: ﴿يَٰأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾(٨٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ٨﴾ (٨٦).

هذا المنهج يهدم مرجعية النص ودلالته، فمصدرية النص الشرعي تنتقض بالنسبية التي تنتجها البنيوية، ودلالات الوحي تنهدم بإغلاق دلالة النص على ذاته، وبتر مدلوله عن مقاصد الشارع الحكيم وأسباب النزول وغيرها من مفسرات النص الشرعي المبينة لمقاصده ومراميه والموضحة لمعانيه. لذلك فالبنيوية مضادة للدين؛ فهي تحل أي شيء مكان الدين أو تسعى لذلك، وقد قال هذا أحد النقاد الغربيين، فقال: "البنيوية هي من بين أشياء أخرى، محاولة أخرى، من سلسلة محاولات مشؤومة قامت بها النظرية

(٨٤)عثمان، خليل الله محمد، موقف الإسلام من نظرية البنيوية في نقد الأدب العربي، مقال، قسم اللغة العربية، جامعة ألورن (ص٦).

(٨٥)بروكر، ألبيتر، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة: عبدالوهاب علوب، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٥م، (ص٧٥).

(٨٦)اللامفكر، والمستحيل التفكير فيه... هي من الألفاظ التي يستخدمها المفكرون العرب كأركون وغيره، ويقصدون بها تفسير ما امتنع عنه الغير من النصوص (ولعلهم يقصدون نصوص الوحيين). أركون، محمد، الفكر الإسلامي "نقد واجتهاد"، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، دار الساقي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨م، (ص٢٢).

الأدبية؛ لإحلال شيء آخر أكثر فاعلية محل الدين، وهو في هذه الحالة دين العلم الحديث"(٨٧).

وتقدم عند الحديث عن مفهوم البنيوية أنها قد أهدرت خصوصية النص (سماوياً كان أو بشرياً)، وتاريخيته التكوينية، وذاتية المؤلف، فلا شيءَ خارجُ النص، وذلك ما يسمونه بـــ"موت المؤلف". بل وصل الحال ببعض البنيويين إلى القول بموت الله ﷻ، يقول روجيه غارودي في كتابه "البنيوية وفلسفة موت الإنسان": "لن يتردد بنيويو الجيل التالي لليفي شتراوس في الانتقال إلى الحد الذي سيقودهم إلى تخيل تاريخ هو محض اشتغال للبنية، تاريخ بلا مبادرة تاريخية، تاريخ بلا بشر، فنراهم يعلنون بلسان فوكو أنه بعد إعلان نيتشه عن موت الله فإن ما يتأكد في أيامنا هذه ليس غياب الله أو موته بقدر ما أنه نهاية الإنسان"(٨٨).

والمنهج البنيوي ينزع من الإنسان إنسانيته، ويجعله فرداً "لا إنساني" فيسلبه فرديته وكل ما يميزه عن غيره ويجعله ذاتاً بلا هوية، فيسلبه خصوصيته التي تميزه عن بقية المخلوقات، كما تجعل منه كائناً بهيمياً يهذي بالكلام بلا عقلٍ ولا إرادةٍ ولا قصد، فكلامه يشبه الهذيان اللاواعي يجب التنقيب عن معانيه لاستخراجها، ومن هذا المنطلق أتت نظريتهم عن "موت المؤلف"، فيفسر كل النصوص الدينية وغيرها حسب هواه، وقد أدرك بعض عقلائهم تهافت هذا الفكر وسقوطه، حيث قال "ألبير ليونارد": "إن مسلمة الانطلاق من الفكر البنيوي هو موقف ضار ضد الإنسانية، وهي مذهب إرهابي يجهد بقسوة جليدية لتدمير أسس الفكر الفلسفي الغربي نهائياً، وهي الحرية البشرية، وأولية الوعي، ومفهوم الذات، ولم يعد الأدب يتعدى أن يكون نتاجاً لا يرجع إلى الفكر المبدع، ولم يعد الإنسان أكثر من حادث يجري الإعلان عن زواله المقبل"(٨٩).

والبنيوية أيضاً في نظر الإسلام منهج تشكيكي في كل اليقينيات، وفي كل شيء محدد وثابت، بل هي فكرة الماديين الدهريين، الذين قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا

(٨٧)السحمودي، شاكير أحمد، مناهج الفكر العربي المعاصر في دراسة قضايا العقيدة والتراث، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، (ص٧٢).
(٨٨)أركون، الفكر الإسلامي "نقد واجتهاد" (ص٨٧).

ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾(٩٠).

لذا لا نرى تطبيق هذا المنهج على نصوص الوحي؛ بوصف المنهج البنيوي "منهجاً مطرداً بقوانين وتحليلات شمولية قاطعة لا تستثني قائلاً ولا نصاً ولا لغة؟، ثم أليس الموقف الألسني يجرد كل قاعدة من قدسيتها؛ بل لا يرى قاعدة إلا فيما هو متداول وممارس من طرف المجموعات البشرية، وفي بعض الأحيان يرى تكسير القاعدة. إن كل من يشك في الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب هو في نظر البنيويين عدو لدود ورجعي تقليدي؛ ذلك أن قوة النظرية تستمد من شموليتها واطراد قانونها بخلاف سائر المناهج والاتجاهات المنطقية - كما يزعمون- وعليه فليس لدى البنيويين نص مقدس لا يخضع لنظريتهم، وتبعاً لذلك جرت دراسة التوراة والإنجيل بنيوياً مثلها مثل سائر النصوص، ومن هنا ندرك مدى خطورة الدعوة إلى البنيوية وتطبيقاتها على اللغة العربية التي أسمى ما فيها وذروة نصوصها باتفاق كل ناطق بها أو دارس لها هو "النص الموحى" - أي: كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ، كيف يمكن أن تطبق على القرآن الكريم نظرية موت المؤلف، واستقلال النص وقيامه كوناً مستقلاً بذاته يفهمه كل قارئ كما يشاء، فلا مانع لدى البنيوية من أن يكون له تفسيرات بعدد القراء بل أكثر من ذلك، فقد ساروا على منهج كفار قريش في الزعم بأن النص القرآني ليس منزلاً من عند الله، والبنيويون حاكوا الباطنية في تفسيره - كما يشاءون- بلا ضابط من عقل أو نقل.(٩١)"

الخاتمة :

نخلص ممَّا سبق إلى ما يلي:

١) أن البنيوية منهج نقدي من ابتكار الروس ظهر بداية القرن العشرين أسس له "فرديناند دي سوسير"، واشتهر في فرنسا على يد "كلود ليفي شتراوس" في ستينات القرن نفسه.

---

(٩٠)المصدر نفسه (ص٩١).

(٩١)سورة البقرة: ١٧٠.

٢) ترجع الجذور التاريخية للمنهج البنيوي إلى المدرسة الشكلانية الروسية، والمدرسة الماركسية.
٣) مفهوم المنهج البنيوي ظل غامضاً حتى عند الغرب أنفسهم؛ لأنه يعد خليطاً متداخلاً من مناهج نقدية متعددة.
٤) أن البنيوية في معناها الواسع تعني بدراسة ظواهر مختلفة كالمجتمعات والعقول واللغات...، ولكنها في معناها الضيق تعني محاولة إيجاد نموذج لكل من بنية هذه الظواهر ووظيفتها على غرار النموذج البنيوي للغة.
٥) أن البنيوية منهج يدرس النص في ذاته بعيداً عما يدور خارجه، باعتباره بنية مستقلة.
٦) تعدد معنى الألفاظ؛ لأن كل مؤلف يقدم تصوره الخاص عن البنية.
٧) أن المنهج البنيوي يتعامل مع اللغة، وينفي وجود أي واقع غيرها.
٨) أن خصائص المنهج البنيوي ثلاثة، هي: (الكلية والشمول، والتحول، والانضباط الذاتي).
٩) أدوات ومفاهيم البنيوية ثلاثة، هي: (النسق، والتزامن، والتعاقب).
١٠) أن البنيوية ظهرت في العالم العربي في أواخر الستينات من القرن العشرين، ولم تبرز وتنتشر إلا في أواخر السبعينيات.
١١) سبب انتشار البنيوية في العالم العربي يرجع إلى ترجمة كتب ومؤلفات الثقافة الغربية التي تعني بالبنيوية، بالإضافة إلى الدراسة في الجامعات الأوربية.
١٢) طبق البنيويون المنهج البنيوي في النقد بداية على النصوص الأدبية، ثم طبقوه على التراث الإسلامي ككل.
١٣) تعامل البنيويون العرب مع نصوص الوحي على أنها نصوص أدبية، دون أي اعتبار لقدسيتها .
١٤) أن البنيوية في حكم الإسلام منهج نقدي هدام، وهي ضد الدين؛ لأنها ذات نزعة مادية حادة، فهي تسعى لإحلال أي شيء مكان الدين.